ذكرى

أنيس صايغ: محطّات معه

صقر أبو فخر*

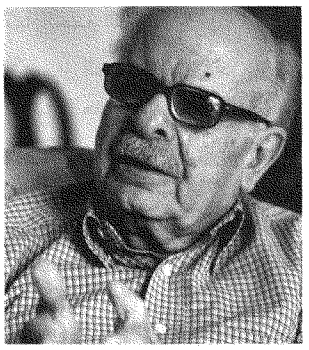

أكثر من ثلاثين سنة أمضيتُها في صحبة أنيس صايغ. ويحقّ لي أن أزهوَ بأنني عايشتُه طوالَ هذه الحقبة التي وهبني في أثنائها صداقةً لا تُمحى، ومحبّةً غامرةً لا تُنسى، ورصيدًا ثقافيّاً كبيرًا، ومؤونةً من الخلق الرفيع لا تقدَّر بثمن. ولعلّني كنتُ من النفر القليل جدّاً، في مقرّ **الموسوعة الفلسطينيّة** في بيروت، الذي كان في إمكانه أن يتوقّع ما سيرتدي أنيس صايغ في الغد ـ وكان مغرمًا بالكحليّ والرماديّ أو الأسود والرماديّ، وجميعِ ألوان ربطات العنق.

ميلادُه ومماتُه

مرةً أخطأتُ في يوم ميلاده، فذكرتُ أنه يقع في ١١/٢. فصحّح لي أحدُ الرفاق بالقول: «بل ١١/٣،» وكان على حقّ. وعندما ذكرتُ للدكتور أنيس ذلك، قال لي ضاحكًا: «أنت تتآمر عليّ. أتريد أن يكون عيدُ ميلادي في يوم إعلان بلفور؟»

نعم، وُلد أنيس صايغ في اليوم التالي لذكرى إعلان بلفور، فكأنه مرصود ـ ولو رمزيّاً ـ ليتحدّى هذا الإعلانَ القبيح. وتوفّي ليلةَ الميلاد، كأنه مثل المسيح مازال حيّاً فينا، رمزيّاً وشعوريّاً، بسيرته الناصعة ومناقبِه العالية ودماثتِه الحانية وخلقِه الرفيع وبساطتِه اللافتة.

تهذيبه

كان الدكتور أنيس، لشدة تهذيبه، يتجنّب ذكرَ الأشخاص حين يروي أو يكتب واقعةً ما، خصوصًا إذا تضمّنتْ أمرًا سلبيّاً. وحتى في مقالاته كان يُجهّل الفاعلَ فيقول: «كتب أحدُ الباحثين» أو: «قال أحدُ رجال السياسة» أو: «حدّثني أحدُ الأصدقاء.» وكم راجعتُه في هذا الأمر بقولي إنّ الواقعة لا تكتمل إلا بالأشخاص المشاركين فيها، فكان يصرّ على موقفه ويقول إنه يروي ولا يؤرّخ. وفي إحدى المناسبات في نقابة الصحافة اللبنانيّة، طلب إليّ أن أقرأ كلمتَه بالنيابة عنه لعدم قدرته على القراءة، وجلستُ إلى جانبه لهذه الغاية. وعندما وصل الدورُ إليه تكلّم قليلاً ثم قال: «سيقرأ الآن أحدُ الإخوة ورقتي عليكم.» وبدأتُ القراءة بالقول: «أنا أحدُ أخوته.» وأسمحُ لنفسي بالبوح بأنني كنتُ واحدًا من إخوته، أو على الأصحّ، كان هو أخي الأكبر.

في مركز الأبحاث

في أواسط سبعينيّات القرن العشرين، كنّا نتردّد قليلاً على مركز الأبحاث في رأس بيروت. وهناك كنّا نرى أنيس صايغ، ونتخيّله أميرًا في تلك الإمارة الراقية: إمارةٍ هي غيرُ ما تعوّدناه في مكاتب منظّمة التحرير الفلسطينيّة، أو في مكاتب المنظّمات المسلّحة في شارع عفيف الطيبي أو في منطقة الفاكهاني. كان مركزُ الأبحاث، كما يقول أنيس صايغ، هو الوحيد بين المراكز الفلسطينيّة المماثلة الذي يحتوي مراحيضَ، وفيها ـ بصورة دائمة ـ صابونٌ وورقُ تواليت. وهذه المراحيضَ هي الوحيدة التي تُغلَقُ من الداخل، وتنيرها الكهرباءُ، وعلى أبوابها علاماتٌ تدلّ على ما كان منها للرجال، وما كان منها للنساء.

في قضايا عربيّة

في سنة ١٩٨٠ التقيتُ أنيس صايغ في مجلة **قضايا عربيّة** في ساقية الجنزير في بيروت، وكانت تَصْدر عن المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر (التي أنشأها أحدُ العقول الفلسطينيّة المهمّة، أي الدكتور عبد الوهّاب الكيّالي). كان يجلس إلى طاولةٍ متواضعةٍ في غرفة صغيرة، ويدير منها أكثرَ من مشروع ثقافيّ. في ما بعد، في سنة ١٩٨٣، كلّفني وضعَ أسئلة ستوجَّه إلى الزعماء العرب، على أن تُنشر المقابلاتُ في جريدة **القبس** الكويتيّة. وبالفعل عكفتُ على أرشيف **السفير** أقرأ ملفّات أولئك الزعماء وأستخلص منها الأسئلة. وقد هالني ما اكتشفتُ لدى هؤلاء من الأمّيّة والسطحيّة والتفاهة، والشطارة في الوقت نفسه. أمين الجميّل، على سبيل المثال، قال إنه يشتري منذ طفولته الأسطواناتِ الموسيقيّةَ، لكنه لم يقتنِ أيّ أسطوانةٍ عربيّةٍ قطّ وهو لا يستمع إلى الغناء العربيّ البتّة.

آنذاك خطر في بالي، واقترحتُ ذلك على الدكتور أنيس صايغ، إجراء مقابلات غير سياسيّة مع الزعماء العرب، أيْ مقابلات

---

* ـ سكرتير تحرير **مجلة الدراسات الفلسطينيّة**، وكاتب في جريدة **السفير**.

فكريّة وثقافيّة خالصة؛ ففي هذا الميدان يُمْكن الكشفُ عن تهافتهم وضحالة ثقافتهم. فضحك وقال: «أولاً، لن يوافقوا على ذلك. وثانيًا، لو تمكّنتَ من استدراج رئيسٍ ما إلى مثل هذه المقابلة، ثم ظهرتِ المقابلةُ في إحدى الصحف كما تشتهي، لقتلوك.»

ظلّت هذه الفكرة تُلحّ عليّ طويلاً، وتمكّنتُ من أن أعرضَها على الأخ ياسر عرفات، فوافق بعد تمنّع؛ وهذا هو الأمر السهل في الموضوع. أما الأمر الصعب، فكان تحديدَ الموعد مع شخصٍ يعيش في الطائرة أو متنقّلاً بين القواعد العسكريّة والمكاتب. وبدأتُ الاستعدادَ لهذه المقابلة التي كانت ستتناول نشأةَ أبي عمّار في القدس، ودراستَه في القاهرة، والنساءَ في حياته ولا سيّما غرامه الأول، علاوةً على الشعر والأدب والموسيقى والفنون الأخرى. وفي معمعان المواعيد المتعاكسة كانت الشهور تمرّ تلو الشهور، ثم وقعتْ حربُ ١٩٨٢، وطارت المقابلة، وتناثرتْ جميعُ خططي في هذا الأمر.

في معمعان المعارك في سنة ١٩٨٢ زرتُ د. أنيس مع صديقنا عبد القادر ياسين. وكان يسأل عن الكتّاب الذين لهم مكافآتٌ لدى **شؤون عربيّة**، فلعلّهم يحتاجون إليها في تلك الأحوال العصيبة. وبناءً على ملاحظةٍ منه، زرنا الأستاذ أكرم زعيتر الذي كان يقطن منزلاً في منطقة الأونيسكو للاطمئنان عنه. وعندما غادر زعيتر بيروتَ تابعتُ الاطمئنانَ عن المنزل الذي يحتوي مكتبةً كبيرةً وكنوزًا من الصور والأوراق والوثائق، وأوصيتُ أحدَ الجنود في فصيلةٍ سوريّةٍ موجودة في المكان بحماية ذلك المنزل. ثم تعرّضتِ المنطقةُ لقصفٍ جويّ مروّع. وعندما ذهبتُ أتفقّد المنزلَ وجدتُه قد طار، والفصيلة السوريّة غادرت الموقعَ. وكم تألّم أنيس صايغ جرّاء ذلك؛ فأكثرُ ما يؤلمه هو اندثارُ الوثائق والصور والكتب.

وعلى ذكر عبد القادر ياسين، فله قصةٌ طريفةٌ مع د. أنيس. ففي سنة ١٩٧٥ طلبتْ منه اللجنةُ التحضيريّة للمجلس الوطنيّ الفلسطينيّ أن يقترح أحدَ الكتاب ليكون عضوًا مستقلاً في المجلس المقبل، فاقترح عبد القادر ياسين. غير أنّ عرفات ضرب كفّاً بكفّ وتمتم: «لا حول ولا قوة إلاّ بالله. الله يرحمو. الرجل أعطاكم عمرو، وأمس مشيتُ في جنازته.» وهكذا طُوي اسمُ ياسين الذي طالما كان مناكفًا لعرفات في الحقبة اللبنانيّة وما تلاها.

طبريّة

كنتُ أناكفه مازحًا فأقول: «دَعك من طبريّة التي توزِّع صورَها في كلّ مكان؛ فحجارتُها سود، وسكّانها يهود، ولشدّة الحرّ في أغوارها يتصايح الناسُ فيها مثلَ القرود.» وهذا الكلام ليس لي، بل مقتبسٌ من بعض كتب الرحّالة. فكان يردّ ضاحكًا: «ومع ذلك فإنّ معظمَ تلامذة المسيح طبرانيون. أما الوحيد الذي خانَ المسيحَ، أيْ يهوذا الأسخريوطيّ، فلم يكن من طبريّة، بل من نواحي القدس.»

عاش أنيس صايغ على شاطئ أكبر بحيْرةٍ عربيّة، إذا استثنينا البحرَ الميّت. وفي ذلك المكان الذي صَنع المسيحُ فيه معجزةَ المشي على الماء، عجز أنيس ابنُ القسّيس عن تعلّم السباحة. لكنه صنع معجزةً أخرى يعجز كثيرون عن الوصول إليها: صَنع بنفسه، ومن نفسه، شخصًا فريدًا ومميّزًا اسمُه أنيس صايغ.

دمشق والقاهرة

مرّةً عجزتُ عن تأمين غرفة في أيّ فندق من فنادق الشام. وقفتُ حائرًا أمام كونتوار فندق أميّة، لا أدري أين أذهب. وحين ذكرتُ لهم أنني صديقُ الدكتور أنيس صايغ، وكنت أعرفُ أنه الفندقُ الأثيرُ لديه، إذ بموظّفةٍ هناك تُدعى سميرة سمعان تقول لي بحبور: «إذًا، انتظرْ قليلاً،» وتدبّرتْ لي غرفةً مريحة.

سميرة سمعان هذه ربحتْ أربعة ملايين دولار مع شقيقها في اللوتو الأميركيّ، فعادت إلى الشام وإلى وظيفتها في فندق أميّة، لأنْ لا شيء عندها يعْدل الشامَ وبلادَ الشام. أما د. أنيس فكان يقول: «بعد بيروت لا توجد مدينةٌ عربيّةٌ يمكن العيشُ فيها إلاّ دمشق.» وكان شغوفًا بالطريق بين دمشق وعمّان لأنها تمرّ بسهل حوران، وهو المتحدّر من جبل حوران أو جبل العرب، أيْ من بلدة خربا في محافظة السويداء اليوم.

على أنّ أنيس صايغ أحبّ القاهرةَ كثيرًا لأنها مدينةُ جمال عبد الناصر.

أسماؤه المستعارة

وقّع أنيس صايغ بعضَ مقالاته بأسماء مستعارة مثل سمير جوهري، وهو ترجمة لاسمه (وقد سرقتُ منه هذه الفكرة، ونشرتُ مقالاتٍ متفرّقةً باسم شاهين أبو العزّ، وهو ترجمة لاسمي كذلك). كما نَشر أكثرَ من مقالة باسم أحمد صالح، وهذا الاسم يتضمّن الحرفين الأوّلين من اسمه الأصليّ. ومقالاته الموقّعة بهذا الاسم ستثير حفيظةَ كثيرٍ من المنظّمات التي ظنّت أنها قريبةٌ منه سياسيّاً، وستجعل بعض الأشخاص الذين تباهوْا بصداقته يَخْجلون من هبلهم.

تسامحُه

كنتُ أعجب لقدرة أنيس على الإصغاء إلى مَنْ لا يحترمهم سلوكيّاً وسياسيّاً. فبعض الفصائل هاجمتْه في حقبةٍ ما، واتهمتْه بأنه يسعى إلى تأسيس منظّمةٍ فلسطينيّةٍ جديدة.

والحقيقة أنه، في تلك الفترة، كان يؤسّس «اللقاء الثقافيّ الفلسطينيّ» المستقلّ. وأحدُ الفصائل افترى عليه بالزعم أنه شوهد في عمّان يشتري حاجاته من محلات عمّان الكبرى، وأثارت مجلة هذا الفصيل شكوكًا في مصدر الأموال التي استخدمها للشراء! وكان ذلك كلّه كذبًا. أما العجب فإنّ هؤلاء الذين هاجموه صاروا في ما بعدُ من روّاد مكتبه، وكان ديدنُهم الدسّ لديه على الآخرين، وأنا واحدٌ منهم. وكان الدكتور أنيس، لأدبه الفائق، يستمع إليهم، لكنه كان يبادر إلى الاتصال بي فور خلاصه من ثرثرتهم، ويخبرني بالتفصيلات كلّها!

لَكَمْ عجبتُ لرحابة صدره وروحه المتسامحة. فمثلاً، بعدما كان توسَّطَ للشيخ زهير الشاويش لدى الحكومة السوريّة كي يتمكّنَ من العودة إلى الشام، وبعدما صدر القسمُ الأولُ من **الموسوعة الفلسطينيّة**، قام الشاويش بإصدار كتابٍ كاملٍ لتجريح **الموسوعة**. العجب الأكبر أنّ الدكتور أنيس، بعدما ردّ عليه، عاد ليكلّفه وضعَ ملاحظاته على **الموسوعة** للأخذ بها في الطبعة اللاحقة!

هجاؤه

كان التسامح، إذًا، يغمر أنيس صايغ في ما يقول وما يكتب وما يعمل. غير أنّ في الإمكان وصفَه أيضًا بأنه هجّاءٌ خطيرٌ من عيار الفرزدق وجرير. أما هجاؤه فهو من نوع الملَح اللطيفة والسخرية الذكيّة اللمّاحة أو التهكّم المهذّب. ففي سنة ١٩٤٨ كتب مقالةً عن أهل بيروت الذين يذهبون إلى صيدا في أيام الآحاد والأعياد ليقطفوا الأكي دنيا ويعودوا بسيّاراتهم المحمّلة بهذه الفاكهة من دون دفع ثمنها، حتى أسماهم أهلُ صيدا «وطاويط الأكي دنيا.»

ولأنه بارعٌ في اختيار أسمائه المستعارة، فقد برع أيضًا في تغيير أسماء مَن اختلف معهم، لا على موقع أو منصب، بل على فلسطين، فكان سيّدًا في رسم الكاريكاتير بالكلمات على غرار ابن الرومي. هكذا رسم لشخصيّاتٍ سياسيّةٍ معروفةٍ أسماءً غرائبيّةً إلى حدٍّ ما مثل: الأشعث ابن الأشعب (لنبيل شعث)، وجورجيوس شوك الصبّار (لصبري جريس)، وجواد غصن البان (لجويد الغصين)، وشرف البصمجي (لبسام أبو شريف)، وعبد الربّ أبو اليسر (لياسر عبد ربّه) ... وهلمجرّاً.

يُثْمنا من بعده

عاش أنيس صايغ صارمًا في السياسة كعالم، ساخرًا من الأيّام كفنّان، مبدعًا كأديب، وإنسانًا بسيطًا طيّبًا ورقيقًا وفائقَ التهذيب. أما أنا الذي صحبتُه وأحببتُه واحترمتُه وعملتُ إلى جانبه ومعه، فقد أحسستُ باليتم لفقدانه. وها أنا أتذكّره الآن بحسرة ولوعة معًا.

بيروت

في الملفّ الثاني من «اليسار العربيّ: الأزمة والاقتراحات»

- نادر فرجاني
- ندوة من المغرب (إعداد: عبد الحق لبيض)
- موفّق نيربيّه
- إيّاد العبدالله
- دياب أبو جهجه
- .....